

الباب الأول

مفهوم الفصاحة عند البلاغيين والنقاد

الفصل الأول : مفهومها الاصطلاحي وعلاقتها بالبلاغة

الفصل الثاني : قواعد الفصاحة •

obeikandi.com

الفصل الأول

المفهوم الاصطلاحي

رأينا فيما سبق أن المعنى الاصطلاحي لكلمة « فصاحة » لم يتضح إلا في الصور المتأخرة ، وأن استعمال هذه اللفظة قد اضطرب بين دلالتها اللغوية وترادفها لكلمة « بلاغة » ، ولستطيع أن نقول: إنَّ المعنى الاصطلاحي للفصاحة قد مر بثلاث مراحل حتى اكتمل ونضج بالصورة التي يراها البلاغيون ، وهذه المراحل هي :

أولا - مرحلة النشأة :

وهي المرحلة التي بدأت ملاحظتها في الظهور على يد أبي عثمان الجاحظ ومن سار على نهجه .

ثانيا - المرحلة الثانية :

وهي مرحلة ظهر فيها مفهوم الفصاحة بصورة منفصلة عن مفهوم البلاغة ، ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الحفاجي .

ثالثا - مرحلة الاكتمال والنضج :

وهي المرحلة التي استقر فيها المفهوم الاصطلاحي للفظ « فصاحة » ، وبدأها السكاكي ، وأكملها شراح التلخيص .
وسنفضل القول في كل مرحلة حتى تتضح معالم الطريق .

أولا - المرحلة الأولى :

لستطيع أن أنلمح في هذه المرحلة أن أعلامها قد تحدثوا عن أشياء كثيرة

صارت فيما بعد من شروط الفصاحة وقواعدها ، لكنهم لم يصنفوها تحت كلمة « فصاحة » بل نجدتها شرحا لكلمة « بيان » أو « بلاغة » كالذى يرويه ثمامة بن أشرس عن جعفر بن يحيى البرمكي في شرح كلمة « بيان » فيقول : « . . أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلي عن مغزاك ، وتفرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة » ، والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل ، ^(١) .

فالسلاسة من التعقيد ، والبعد عن التأويل ، من شروط الفصاحة لأنَّ ما يؤول هو الغريب الغامض ، والتعقيد قد اشترط البلاغيون خلوص فصاحة الكلام منه ، أما الغرابة فهي شرط في فصاحة المفرد عند المتأخرين .

ونجد ثمامة بن أشرس أيضا يصف جعفر نفسه فيقول : « ما رأيت أحدا كان لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحج ، ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه ، أشد اقتدارا ، ولا أقل تكلفا » ، من جعفر بن يحيى ^(٢) .

ووصف ثمامة لجعفر بهذه الصفات يمكن أن يوضع فيما يسمى « فصاحة المتكلم » ، الذى يجب أن يتمتع بسلاسة النطق فيخلو من اللغفة والتسمة والافأنة وغيرها ، والاستثناء عن الإشارة يوحى بأنه كان يعطى السكاكات النطق الكامل مع حسن الأداء ومراعاة النبر ، كما أن تجنب الاحتباس والتوقف والتلجلجة دليل على الموهبة وسرعة البديهة التى تمكنه من اختيار أنسب الالفاظ للمعاني المراد التعبير عنها .

ولقد رأينا فيما سبق — أن كلمة بلاغة كانت تفسر بأشياء تضمنتها الفصاحة فيما بعد ، كما استخدمت كلمة « فصاحة » بمعنى « بلاغة » ، في فترات مختلفة .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦ ، عيون الأخبار ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦ .

ولعل أقرب الذين استعملوا لفظة « فصاحة » إلى مدلولها الاصطلاحي هو الجاحظ ويبدو ذلك من عبارته التي وضح بها مراد العتاني في توضيح رأيه في البلاغة فلقد قال شارحا معنى كلمة « بلاغة » .. « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبيسة ولا استعانة فهو بليغ » .

ويوضح الجاحظ ما قصده العتاني بالإفهام في هذه العبارة قائلا : « والعتاني حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلدين قصده ومعناه بالكلام المملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة ، وإنما عني العتاني إفهامك العرب حاجتك على مجاوى العرب الفصحاء .. » (٣) .

فالكلام البليغ لابد أن يكون فصيحاً حتى يتم الإفهام بطريقة العرب المثقفين أو أصحاب السليقة الخالصة من العرب واللسان الذي لم تشبه شائبة ، لأن القضية ليست إفهاماً فقط ، فقد يحدث الإفهام بطرق لا تمت إلى الفصاحة والبلاغة بشيء ، ويؤكد أبو عثمان هذا المعنى قائلاً : « فن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة والسكينة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والمملحون والمعرب كله سواء ، وكله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص انذى فينا ، وأهل هذه اللغة وأرباب البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلي . وأن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأننا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم — فنحن قد نفهم بمجموعة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إراداته ، وكذلك الكلب والحمار والصبي

الرضيع .. (٤) .

ونستطيع أن نوجز القول في هذه المرحلة فنقول: إنَّ كلمة فصاحة لم تستخدم بصورتها التي استقرت فيما بعد ، ولكنها مع ذلك كان لها جذور متمثلة في تلك الموضوعات والقواعد التي اشترطها الجاحظ ومعاصروه للبيان أو البلاغة ، كأن كلمة فصاحة كانت تستعمل كثيراً بمعنى سلامة النطق ، وهذا قريب مما عرف عنها أخيراً ، وخاصة ما ذكر عن التنافر وعيوب النطق والغرابة ، وسيأتى تفصيل ذلك في حينه — إن شاء الله تعالى .

وإذا ما تركنا الجاحظ الذي يمثل المرحلة الأولى فإننا نجد أنفسنا عند ابن سنان الخفاجى الذى ترتبط به مائتة منه :

ثانيا - المرحلة الثانية :

وهى المرحلة التى ظهر فيها المفهوم الاصطلاحي بصورة واضحة ويرجع الفضل فيها إلى ابن سنان الخفاجى الذى أشار كثيراً إلى فضل الجاحظ فيما توصل إليه ، ويرى الخفاجى أن العارفين بالفصاحة قليلون ، وأن الادعياء الذين ينسبون أنفسهم إليها كثيرون، ويرى الخفاجى أن هذا داء قديم قد أعيا أبا عثمان الجاحظ والآمدى من بعده (٥) .

والحقيقة أن الخفاجى قد أقام كتابه « سر الفصاحة » على أساس الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، وسيبدو ذلك من تناولنا لمفهوم الفصاحة عنده .

ويفرق الخفاجى بين البلاغة والفصاحة فيقول: « والفرق بين الفصاحة والبلاغة

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٦٢ .

جاء في رسالتنا « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ » مفهوم الفصاحة مفصلاً عند الجاحظ .

(٥) سر الفصاحة ص ٥٣ .

أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني ، لا يقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه .. ، (٦) .

وهذا التفريق الذي وضعه الخفاجي قد شاع بعده كثيراً واستمر عند كثير من البلاغيين ، واستمر هذا التفريق بعد ذلك أساساً للمفهوم الاصطلاحي الذي نضع فيما بعد .

ويؤكد الخفاجي هذه التفريق بين اللفظتين في موضع آخر قائلا :

« .. وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحر ، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزئها ، فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لا يختص ، وخليط لا ينقسم ، وسأذكر بمشيئة الله ما يحظر لي ، ويسمح بفكرى في موضعه .. ، (٧) .

فالفصاحة جزء والبلاغة كل ، وكلامه لذلك عنهما سيكون واحداً إلا في المواضع التي يجب التفريق بينهما ، ومن أجل ذلك نرى الكتاب كله مقاما على أساس الكلام عنهما .

ولقد اعترض بهاء الدين السبكي على ما قاله ابن الأثير وذلك عندما ذكر أن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة علاقة هموم وخصوص ، وأكد بهاء الدين أن العلاقة بينهما علاقة الكل والجزء مؤكدا بذلك ما قاله الخفاجي : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعاني فهي أخص من الفصاحة ، كالإنسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا .

(٦) سر الفصاحة ص ٤٩ - ص ٥٠ .

(٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

قلت : هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة ، ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمي المركب تركيبا غير محلي أخص ، والمفرد أعم ، وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتمالها على الأمرين ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء (٨) ..

ولقد اعترض السبكي على حازم القرطاجنى بالاعتراض نفسه الذى سبق أن نقد به رأى ابن الأثير (٩) ..

ومهما تكن الفصاحة فإنها فى رأى ابن سنان نعت للألفاظ بشروط عدة ، وأعلى درجاتها تلك التى قد اكتملت فيها الشروط ، كما تختلف درجات الفصاحة فى الألفاظ بحسب الشروط الموجودة فيها ، كما أن الفصاحة تنعدم بالانعدام شروطها أو بوجود شروط مضادة ، وهذه الشروط عند الحفاجى قسمان :

١- الأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يتضمن إليها شئ من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى : يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض (١٠) .

وهذه الشروط التى اشترطها ابن السنان قد صارت فيما بعد متضمنة فى المعنى الاصطلاحي للفصاحة وسيوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

ونستطيع أن نشير إلى هذه الشروط إشارة مجملة حتى يظهر الأثر الذى تركه الحفاجى فى المتأخرين بعده .

لقد جعل ابن سنان الشروط التى توجد فى اللفظة الواحدة ثمانية أشياء نوجزها فيما يلى :

١ — تباعد مخارج حروف اللفظة وعلة ذلك فى نظره .

(٨) عروس الأفراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .

(٩) عروس الأفراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٥ .

(١٠) سر الفصاحة ص ٥٤ .

٢ — حسن تأليفها وأثره في السمع .

٣ — أن تكون اللفظة غير متوعدة وحشية ، وهذا الشرط قد صرح الحفاجي أنه قد أخذه عن أبي عثمان الجاحظ .

٤ — كون الكلمة غير ساقطة سوقية ، وهذا الشرط مأخوذ أيضا عن أبي عثمان الجاحظ .

٥ — أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح ، خالية مما يراه علماء النحو أو الصرف مفسدا ، ونحن نستطيع أن نجد لهذا الشرط أصولا عند أبي عثمان الجاحظ .

٦ — ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧ — أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف .

٨ — أن تكون الكلمة مصغرة تصغيرا تحسن به .

وهذه الشروط قد انتظامها البلاغيون فيما بعد في تعريف الفصاحة كما جعلوا بعض هذه الشروط مضمومة في شرط واحد ، وسيبدو ذلك فيما بعد .

كما أننا نستطيع أن نجمل شروط القسم الثاني وهي : الشروط التي يجب أن تكون موجودة في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، وهي بإيجاز :

١ — ما يوجد من الشروط الثمانية الخاصة بالقسم الأول وله علاقة بالالفاظ المنظوم بعضها مع بعض مثل تجنب السكبات ذوات الحروف المتقاربة ، ومثل مراعاة العرف العربي الفصيح في الإعراب والاشتقاق ..

٢ — أن توضع الالفاظ موضعها المناسب حقيقة ومجازا .

٣ — ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يؤدي إلى فساد المعنى أو الإعراب .

٤ — ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه .

٥ — حسن الاستعارة .

- ٦ — عدم وضع الكلمة موضع الحشو من أجل القافية أو غير ذلك .
- ٧ — أن يكون غالبا من التركيب المتداخل أى خلوه من المعاطلة .
- ٨ — عدم استعمال ألفاظ المدح فى الذم أو ألفاظ الذم فى المدح .
- ٩ — تجنب المصطلحات المهنية أو الفنية .
- ١٠ — المناسبة بين اللفظين فى الصيغة أو المعنى .
- ١١ — الإيجاز وحذف فضول الكلام وهذا فى نظره أشهر دلائل الفصاحة والبلاغة .

- ١٢ — أن يكون معنى الكلام واضحا لا يحتاج إلى تأمل وتفكير .
 - ١٣ — تجنب الخطأ فى استعمال الإرداف والتتبع (السكناية) .
 - ١٤ — تجنب الخطأ فى استعمال التثنية (الاستعارة بالمركب) .
- وهذه الشروط التى أجهلناها تمثل معظم كتابه بل نستطيع أن نقول إنه الأساس الذى قام عليه كتاب سر الفصاحة ، ولقد لجأنا إلى عرض هذا التلخيص ليظهر أمامنا فيما بعد أثر الخفاجى فىمن جاءوا بعده ، ومدى استفادتهم بما كتبه عن الفصاحة . وما استطاعوا أن يضيفوه .
- آراء الفقهاء :

ولنقتاد القدماء آراء وملاحظات ساهمت كثيرا فى تحديد المعنى الاصطلاحي للفصاحة بعد ذلك ، ووسعت من موضوعاتها ، ونخص بالذكر كتاب المرازنة بين شعر أبى تمام والبحتري للحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكتاب الوساطة بين المتبنى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، ويبرز دورهم فى عدة نواح نستطيع أن نوجزها فيما يلى :

- ١ — اهتمامهم الكبير بأغاليط الشعراء فى اللفظ والمعنى ، مما دفع البلاغيين فيها بعد إلى اشتراط (الخلو من مخالفة القياس اللغوى) فى فصاحة المفرد ،

و (الخلو ص من ضعف التأليف) الذى استقر وضعه فى فصاحة الكلام ، وهذا من ناحية أخطاء الشعراء اللغوية ، أما أخطاؤهم المتعلقة بالمعنى والى قد تتبعها النقاد هيات للبلاغيين مجالاً للحديث عن التعقيد الذى صار اشتراط الخلو ص منه من فصاحة الكلام . ولقد ظهر اهتمام النقاد بأغاليط الشعراء اللفظية والمعنوية فيما عقده الجرجاني والآمدى عن أخطاء أبى تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم من سابقينهم ولا حقيهم من الشعراء (١١) .

٢ — تقصى النقاد للوحشى من الالفاظ عند الشعراء قد صار من اهتمام البلاغيين واللغويين ، فلقد ردوا (الغرابية) إلى الكلام الوحشى وغيره ، والغرابية قد اشترط البلاغيون خلو ص الكلمة المفردة منها (١٢) .
كما أن ما أخذ على الشعراء لاستعمالهم الساقط من الالفاظ قد دخل فى مباحث الفصاحة عندما حذروا من استعمال الساقط السوقي .

٣ — تتبع الصور الحالية والمجاز قد أتاح للباحثين فى اللغة أن تتعمق نظراتهم إلى المعنى الحقيق والمعنى المجازى للألفاظ ، مما يساعد على تباير المعانى المتعلقة بها ، كما قد يؤدى إلى النظر فى غرابية الالفاظ وابتذالها ، وارتباط ذلك بمصر دون عصر (١٣) .

٤ — تناول النقاد لآلوان البديع اللفظى كالجناس والسجع — يدخل فى مباحث الفصاحة التى تتناول الحكاية الصوتية ، أو الصورة الصوتية ومدى تناسبها مع معانيها (١٤) .

(١١) انظر الوساطة ص ٤ . ١٥ . ٤٣٤ . ٤٤١ . الموازنة ص ١٣٦ ، ١٥٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ .

(١٢) الموازنة ص ٢٧٦ — ص ٢٨٧ .

(١٣) الوساطة ص ٣٤ — ص ٥٤٠ . الموازنة ص ١٥١ ، ٢٤٣ .

(١٤) الوساطة ص ٤١ ، ٤٤ .

كل هذه الأشياء وغيرها تناولها النقاد له علاقة كبيرة بتحديد المعنى الذي استقرت عليه لفظة فصاحة، وبالموضوعات التي صارت فيما بعد مباحث للفصاحة العربية، وستوضح علاقة هذه الموضوعات التي أشرنا إليها بقواعد الفصاحة التي سنعالجها في هذا الباب، والباب الذي يليه إن شاء الله تعالى.

علاقة عمود الشعر بالفصاحة :

نستطيع أن نقول : إن المفهوم الاصطلاحي لكلمة فصاحة له علاقة وثيقة بالقواعد الفنية التي تعلقت بالشعر العربي، ونعني بذلك ما عرف باسم عمود التقليدي كما فهمه النقاد والرواة . فلقد جاء فيما أورده — المرزوقي في مقدمة ديوان الحماسة عدة أسس يقوم عليها عمود الشعر العربي التقليدي وهي : شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتسامع على تخيير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منازرة بينهما . (١٥)

وهذه الشروط وما لها من مقاييس يرتبط أكثرها بمفهوم الفصاحة وموضوعاتها التي صارت مجالات للبحث . ونخص بالذكر ما أشار إليه في العمود عن المعاني والألفاظ .

فالمعنى يشترط أن يكون شريفاً ومقبولاً لدى العقل، وهل يعنى ذلك أن معاني الشعر لا يصح أن تكون سوقية أو شعبية . . . ؟

لقد أوضح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أن معاني الشعر قد أضلها التغيير في القرن الثاني الهجري، مما قد أغضب كثيراً من النقاد والرواة وأصبحت القصائد تضم بين جوانحها معاني لا تتصف بالشرف في نظر أولئك النقاد مثل

(١٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ - ١١ ، اتجاهات الشعر العربي للدكتور محمد هدارة ص ١٦٠ .

الآيات والقصائد التي تنسب إلى أبي الشمقم وأبي فرعون السامى . (١٦)
وهى قصائد تصف حالات الفقر والجوع التي تمزق صبر أولئك الشعراء .

كما يجب أن نلاحظ أن شرف المعاني مسألة نسبية قد تتغير من عصر إلى آخره ،
وقد نرى الآن في عصرنا هذا شعراء قد تناولوا معاني لا تتصف بالشرف إذا
قيست بالمعيار القديم ، لكنها في نظر المحدثين معاني قد تتصف بالعمق أو الجمال
أو الابتكار ...

لكن الذى يهمنا في قضية المعنى هو مدى وضوحه وصدقه وملاءمته ، لأن
المعنى لا يشرف — قديما وحديثا — إذا اتصف بالغموض والفساد والابتذال
وهذا ما يشترطه البلاغيون من وجوب خلوص الكلام من التعقيد المتعلق
بالمعنى .

ومن الواضح لدينا أن البلاغيين عندما اشترطوا خلوص الكلام من التعقيد
حتى يتصف بالفصاحة — قد كان في أذهانهم تلك القواعد الفنية المتعلقة بفن
الشعر .

أما ما يخص الالفاظ فيما ورد عن عمود الشعر العربى التقليدى فإنه يتصل
كذلك بالفصاحة ، فلقد وضع مقياس للفظ هو الطبع والرواية والاستعمال ،
لكن هذا المقياس يجب أن يتغير إذا وضعنا في اعتبارنا أن اللغة كائن حي يندمو
ويتغير كما يتغير الإنسان في مراحل عمره ، ولقد تغيرت الالفاظ فعلا ، فلم تعد
الالفاظ الجزلة هى المطلب الذى يسعى اليه الشعراء ، ولقد أوضح أستاذنا
الدكتور هدارة هذا عندما تحدث عن شعراء القرن الثانى الهجرى ويرى : « أن
المحدثين قد خرجوا خروجا جديدا متعمدا على عيار اللفظ في عمود الشعر التقليدى لينقلوا
الشعر من أرسقراطية البيئات العلمية ومجالس البلاط إلى الشوارع والأزقة

(١٦) اتجاهات الشعر العربى في القرن الثانى الهجرى ص ١٦١ ،
ص ١٧٦ - ١٧٩ - الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٧٠ .

حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة على المجتمع ، وبذلك تراجعت إلى حد كبير الالفاظ الجزلة الضخمة التي كانت تملأ الفم وتفتحهم السمع ، وغلبت على شعر المحدثين في القرن الثاني الالفاظ السهلة الرقيقة الخافتة التي تعتبر ضعيفة في بينات العلماء والرواة ، كما يعتبر بعضها ساقطاً من ناحية اللغة ، وهي الالفاظ التي كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة في السوق أو الطريق ، لامن أفواه علماء اللغة ورواتها الذين كانوا مهتمين في هذا القرن بجمع شاربها وواردها . (١٧)

ويتضح ذلك من قصائد أبي الشمقمق والعماني وأبي فرعون الساسي التي أشرنا إليها وكذلك في شعر أبي نواس .

ولستطيع أن نلاحظ بيسر العلاقة الوثيقة بين هذا لاساس أو الشرط الذي يقوم عليه عمود الشعر ، فلقد استقر في مباحث الفصاحة أقوال وموضوعات تتناول صفات الالفاظ ، كالجزالة والفخامة ، والوحشي والسوقي ، والمخطأ والملاحون ، والمغرب والدخيل والمولود . كما ظهرت صفات أخرى مثل المترادف والمشارك والاضداد ، مما أتاح مجالاً واسعاً لعلماء اللغة ، بل ظهرت كتب في هذه الصفات المتعلقة بالالفاظ ، وستناول إن شاء الله أكثر هذه الصفات اللفظية فيما سنكتبه عن عيوب الفصاحة .

فانصاف الالفاظ بصفة ثابتة أمر يناق طبيعة تطور الاحياء واللغة كائن حتى لا بد أو يطرأ عليه تغيير في الكلمات والتراكيب والاصوات كما يطرأ على الإنسان تغيير في ألسنته وخلاياه .

فعمود الشعر التقليدي له علاقة وثيقة بالفصاحة ويظهر ذلك فيما ذكرناه عن شرف المعنى ووضعته ، كما يظهر في جزالة اللفظ وما قد يطرأ عليها من صفات أخرى .

ونجد أنفسنا الآن أمام ما أسميناه بمرحلة النضج وهي :

ثالثا - المرحلة الثالثة :

وهي المرحلة التي اكتمل وتبلور فيها المفهوم الاصطلاحي للفظلة فصاحة ، ومن أبرز أعلامها أبو يعقوب السكاكي والقزويني والسبكي والتفتازاني وغيرهم ممن اهتموا بشرح تلخيص المفتاح .

ويعرف السكاكي الفصاحة قائلا : . . . وأما الفصاحة فهي قسمان : راجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد . وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربييتهم أدور ، واستعمالهم لها أكثر ، لا بما أحدثها المولدون ، ولا بما أخطأت فيه العامة .

وأن تكون أجرى على قوانين اللغة . وأن تكون سليمة عن التافه . والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرياً في متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ، ويوثر مذهبك نحوه حتى يقسم فكرياً ، ويشعب ظنك إلى أن لاتدرى من أين تتوصل ، وبأى طريق معناه يتحصل ، كقول الغزيريق : وما مثله في الناس إلا ملائكا أبو أمته حتى أبوه ميثكاً رؤيه وكقول أبي تمام :

قافية في كبد السماء ولم يكن كائنين فان إذ هما في الغار^(١٨)

(١٨) مفتاح العلوم ص ١٩٦ - ص ١٩٧ . ويرى الآمدي في الموازنة ص ٢٩ أنه يجب أن يقول في البيت : « ولم يكن لائنين ثانياً » لأنه خبر يكن واسمها الضمير العائد على بابك فليس إلى غير النصب سبيل والا بطل المعنى ومعنى البيت أن بابك صار في الصلب جارا لما زيار وهو ثانيه في كبد السماء ، والصلب رذيلة . ولم يكن ثانياً لائنين في الغار لأن تلك فضيلة ، كما يتمثل التعقيد في قوله ثاني اثنين مع أن عددهما اثنان فقط لان الاثنين أحدهما ثاني الآخر ، وهذا خطأ ، ولو قال كانا اثنين وليس لهما ثالث لكان صحيحاً .

وفستطيع أن نرى مباشرة تقسيم السكاكي للفصاحة إلى قسمين : أحدهما راجع إلى المعنى والثاني يرجع إلى اللفظ . ولعل السكاكي يقصد بقوله : « راجع إلى المعنى ، ما عرف فيما بعد بفصاحة الكلام ، أو ما ذكره الخفاجي عن فصاحة الألفاظ المنظومة بعضها إلى بعض ، ولقد فسر السكاكي ما أسماه « بفصاحة المعنى ، بشيء واحد فقط هو « خلوه من التعقيد ، لأن التعقيد يغلق الطريق إلى المعنى . وهذا هو الذي قصده الخفاجي في الشرط السابع والشرط الثاني عشر اللذين يشترطان وضوح المعنى وعدم اللجوء إلى التراكيب المتداخلة والتي تؤدي إلى المماثلة .

أما الفصاحة التي ترجع إلى اللفظ فلقد وضع السكاكي لها شروطا ثلاثة هي :

- ١ — كون الكلمة عربية أصلية .
- ٢ — كونها جارية على قوانين اللغة .
- ٣ — سلامتها من التنافر .

وهذه الشروط الثلاثة قد أخذها عن الخفاجي والجاحظ من قبله ، فلقد رأينا اشتراط الجاحظ الإفهام أن يكون بكلام العرب الفصحاء . كما رأينا ابن سنان الخفاجي يطلب في الشرط الخامس من شروط الفصاحة في اللفظة المفردة أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح . هذا عن كون الكلمة عربية أصلية .

أما عن ضرورة جريانها على قوانين اللغة ، فلقد سبقه الجاحظ والخفاجي في ذلك ونرى الخفاجي يشترط في الشرط الخامس أيضا أن تكون الكلمة خالية مما يراه علماء النحو والصرف مفسدا .

أما عن سلامتها من التنافر فلقد أفاض الجاحظ فيه وتبعه الخفاجي في تفسير التنافر وأسبابه .

فالسكاكى لم يأت محدود في تفسير الفصاحة تقريبا ، وينحصر جهده في توضيح المفهوم الاصطلاحي للفظنة وتضمينه لشروطها في التعريف . بل اننا نرى بوضوح أن السكاكى لم يستوف شروط الفصاحة التي ذكرها ابن سنان .

أما الخياط القزويني فإنه يزيد على السكاكى تقسيمه الفصاحة إلى ثلاثة أقسام ، فلقد جعل فصاحة المفرد ، وأخرى للكلام ، وثالثة للمتكلم .

وفصاحة المفرد عند القزويني هي : .. خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي .. ، (١٩) .

ومرد الغرابة عند القزويني هو ، كما يذكر في الإيضاح ، بسبب كونها وحشية وهو يستشهد على ذلك بما رواه الجاحظ عن عيسى بن عمر النحوي عندما سقط عن حمارة .

والشروط الثلاثة قد وردت عن الجاحظ والخفاجي ، كما أن القزويني الذي لخص المفتاح ، وشرح تلخيصه له قد وضع الخلوص من د الغرابة ، كشرط لفصاحة المفرد مكان شرط كونها عربية أصيلة عند السكاكى .

ويضيف القزويني شرطا رابعا إلى فصاحة المفرد وهو د الكراهة في السمع ، ولكنه لا يضعه في تعريف فصاحة المفرد لأن فيه نظرا كما يقول (٢٠) .

أما فصاحة الكلام فهي في نظر القزويني : د خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها ، (٢١) .

وهذه الشروط قد ذكرها الخفاجي وأشار الجاحظ إلى بعضها ، فلقد أشار الجاحظ إلى تنافر الكلمات في أكثر من موضع في البيان والتبيين ، وكذلك ينصح

(١٩) شروح التلخيص ص ٧٥ .

(٢٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .

(٢١) شروح التلخيص ص ٩٥ .

ملتزمس البيان بالبعد عن التعقيد ، أما الحفاجي فلقد أفاض في شرح هذه الشروط التي لخصناها فيما سبق .

ويصنف القزويني إلى هذه الشروط شرطا آخر هو : خلوص الكلام من كثرة التكرار ومن تتابع الإضافات ، ولكنه لم يوضع في تعريف فصاحة الكلام لأن الخطيب القزويني يرى أن فيه نظرا^(٢٢) .

ويوضح القزويني المفهوم الاصطلاحي لفصاحة التكلم بأنها .. ملكة مقصودة بلفظ فصيح فصيحاً ، إلا إذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير غير المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتي النطق وعدمه ، وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب .. ،^(٢٣) .

ولقد وجه شراح و تلخيص المفتاح ، للقزويني بعض المآخذ تخص المعنى الاصطلاحي للفصاحة وسنحاول أن نجملها فيما يأتي : —

أولاً : يرى بهاء الدين السبكي أن المصنف قد عدل عن إيراد حدد شامل للفصاحة يصدق عليها ، ولجأ إلى فصل تعريف فصاحة المفرد عن فصاحة الكلام . ويرى السبكي أنه لم يأت في ذلك بمجديد فلقد سبقه إلى هذا الحفاجي في كتاب سر الفصاحة^(٢٤) .

ثانياً : أخذ على القزويني قوله : « الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام ، فلقد رأى سعد الدين التفتازاني في مختصره على شرح و تلخيص المفتاح ، أن كلمة « الكلام » تشمل المركب الإسنادي وغيره^(٢٥) . ويرى ابن يعقوب المغربي صاحب « مواهب الفتاح في شرح و تلخيص المفتاح » ، أن هذا الوصف لا يخلو

(٢٢) شروح التلخيص ص ١١٢ — ص ١١٣ .

(٢٣) شروح التلخيص ص ١٢٤ .

(٢٤) شروح التلخيص ص ٧٣ .

(٢٥) شروح التلخيص ص ٧١ .

من الملابس^(٢٦) . أما بهاء الدين السبكي صاحب «عروس الافراح» ، فيرى أن جعل الفصاحة للمفرد والكلام يميل المركب الإضافي مثل «عبد الله» والجملة الموصول بها ، كما لا يدخل فيه كل واحدة من جهتي الشرط وجوابه ، ويرى أنه كان من الأفضل للقرويني أن يضع كلمة «المركب» مكان «الكلام» لأنها أشمل وتضم المفيد وغير المفيد^(٢٧) .

ثالثا : أخذ على القرويني لفظة «الخلوص» في تعريفه لفصاحة المفرد بقوله : «.. خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس» ، فالتفتازاني يرى أن تفسير الفصاحة «بالخلوص» لا يخلو من تسامح^(٢٨) . وهذا التفسير المخصوص بالعدمية كان من الأفضل اجتنابه كما يرى السبكي ، وهو يرى أنه «كان الأحسن اجتناب لفظ الخلوص لغلبة استعماله في الانفكاك عن الشيء بعد السكون فيه» ، وليس الأمر هناك كذلك .. ، إن الخلوص من هذه الأمور عبارة عن عدمها . فهو تعريف بالأمور العدمية ، وإنما يكون التعريف بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، فكان ينبغي أن يقال : الفصاحة : التمام الحروف ، وكثرة الاستعمال ، وموافقة القياس .. ،^(٢٩) .

ويقصد الشيخ بهاء الدين بكلمة «القياس» قياس التصريف ، كما يقصد بكلمة «الاستعمال» استعمال العرب .

رابعا : وقد أخذ عليه أيضا قوله «مخالفة القياس اللغوي» ، فلمقد ذكر الشيخ بهاء الدين السبكي أنه كان ينبغي أن يقال : إن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع في القرآن^(٣٠) لأن الذي خالف القياس وكثر استعماله

(٢٦) شروح التلخيص ص ٧١ .

(٢٧) شروح التلخيص ص ٧٣ - ص ٧٤ .

(٢٨) المصدر نفسه ص ٧٧ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٧٦ - ص ٧٧ .

(٣٠) المصدر نفسه ص ٨٨ .

وورد في القرآن يعد فصيحاً ، فضابط المخالفة عبد السبكي هو اجتماع عدم الاستعمال مع عدم الورد في القرآن الكريم .

خامساً : وقد أخذ عليه قوله في فصاحة الكلام : « خلوصه بما ذكر ، ومن كثرة التكرار ، وتتابع الإضافات .. » (٣١) ، فلقد ذكر السبكي أنه لم يتبين مقصود المصنف وفي ذلك نظر في رأي السبكي : « قد يكره تتابع الإضافات بشروط أن تكون ثلاثاً فأكثر ، وألا يكون واحد منها جزءاً أو كالجزء ، وألا يكون المضاف إليه الأخير ضميراً ، وأن يكون فيها إضافة في علم كقول أبي سفيان : لقد أمّر أمّ ر ابن أبي كبشة . فليس في ذلك استكراه .. » (٣٢) . هذه بعض الآراء التي انتقد بها شراح التلخيص الخطيب القزويني ، وهي في مجملها توضح المفهوم الاصطلاحي لكلمة « فصاحة » الذي استقر وضعه عند القزويني .

ويرى السبكي أن أكثر الناس قد عرفوا الفصاحة تعريفات لا تخرج عما قاله الخطيب القزويني تقريباً فهي في مضمونها تعريف واحد ، لكن تعريفاتهم لفصاحة المتكلم كثيرة جداً ، وهي مستمدة مما ذكره الخطيب القزويني في الإيضاح وإذا كان هذا هو المفهوم الاصطلاحي للفصاحة ، فما العلاقة التي بينها وبين البلاغة . . . ؟

العلاقة بين الفصاحة والبلاغة

رأينا فيما سبق مراحل تطور المفهوم الاصطلاحي للفصاحة ويجدر بنا ونحن نتلمس العلاقة بين الفصاحة والبلاغة أن نذكر المفهوم الاصطلاحي للبلاغة بالصورة التي استقر عليها أخيراً كما حددها رجل كالخطيب القزويني ومن سار في ركابه وللمتقدمين الذين تحدثوا عن البلاغة أقوال كثيرة وهي تصف جوانب

٠ (٣١) المصدر نفسه ص ١١٢

٠ (٣٢) المصدر نفسه ص ١١٧

للبلاغة فقط ولا يقصد بها التعريف الشامل كالتى جمعها الجاحظ فى البيان والتبيين ونقلها عنه المتأخرون من بعده ، مثل الحوار الذى جاء فى البيان والتبيين عن معنى البلاغة عند الفارسى والرومى والمهذى واليونانى ، والذى ورد فى الصحيفة الهندية ، وما ورد أيضا عن ابن المقفع وسهل بن هارون ، وعمرو بن عبيد وبشر ابن المعتمر وثمامة بن أشرس وغيرهم . فهذه أوصاف للبلاغة ربما تمثل فى مجموعها صورة كاملة للبلاغة .

ولقد استطاع الخطيب القزوينى أن يستخلص تعريفا لها وهو مستمد من آراء من سبقوه ، يقول فى الإيضاح : . . . وأما بلاغة الكلام فى : « مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته » (٣٣) .

ويرى الخطيب أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى ما يسميه عبد القاهر بالنظم وينقل عبد القاهر قوله : النظم تأخى معانى النجوى فى بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام .

لذلك يصف البلاغة بأنها : « صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب . وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا . وهو مراد الشيخ عبد القاهر بما يسكره فى دلائل الاعجاز » (٣٤) .

هذا عن بلاغة الكلام ، أما رأيه فى بلاغة المتكلم فى : نثره :

« ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » .

ويحاول القزوينى أن يخلص من كلامه هذا إلى أمرين هامين كان لهما الأثر الكبير فى توجيه البلاغة من بعده ، وأحدهما : أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ، ، وليس كل فصيح بليغا . وهذا المفهوم قد أخذه عن الخفاجى كما أشرنا قبل ذلك .

(٣٣) شروح التلخيص ص ١٢٢ .

(٣٤) شروح التلخيص من ص ١٢٤ : ص ١٣٦ .

والثاني : أن البلاغة في الكلام مرجعها : أ — إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، ب — إلى تمييز الكلام الفصيح من غيره .

وهو بهذا القول يحاول أن يحدد موضوعات علوم البلاغة التي أكملها بعد السكاكي ، ويرى أن ما يحتز به عن الخطأ هو علم المعاني . وما يحتز به عن التعقيد هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحمين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، وفصاحته هو علم البديع (٣٥) .

لكننا نرى أن كثيرا من علماء البلاغة قد يسمى العلوم الثلاثة بالبيان ، وبعضهم سمي الأول علم المعاني ، وبعضهم سمي علم البيان والبديع علم البيان ، كما نرى أن علم البديع كان أحيانا يطلق على الثلاثة . والذي وضع هذه العلوم هو السكاكي وأكملها القزويني وغيره ..

والذي يهمنا الآن أن نتبين العلاقة بين البلاغة والفصاحة ، وتظهر العلاقة بين اللغتين لو أعدنا النظر في المعنى الاصطلاحي الذي استقر لهما .

ونلاحظ منذ البداية أنهم عرفوا فصاحة المفرد والكلام والمتكلم ، ولكنهم لم يعرفوا إلا بلاغة الكلام والمتكلم فقط ، ولذلك نجدهم يقولون : .. كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة .. ، (٣٦) .

ومن ذلك نجد أن كلمتي د فصاحة ، و د بلاغة ، تشتركان في أن كل واحدة منهما تقع صفة لشئين ، أحدهما : وقوعها صفة للكلام كما نقول قصيدة فصيحة أو بليغة وجملته فصيحة أو بليغة ، والثاني : وقوعها صفة للمتكلم مثل قولنا هذا شاعر فصيح أو بليغ وكاتب فصيح أو بليغ .

وتنفرد الفصاحة — كما ذكرنا — في كونها صفة للمفرد فنقول كلمة

(٣٥) شروح التلخيص ص ١٤٩ — ص ١٥١ .

(٣٦) شروح التلخيص ص ٧٤ .

فصيحة ولانقول : كلمة بليغة ، إلا إذا دلت لفظة « كلمة » على « الكلام » ، واستعملت مجازية كما في قولنا : « ألقى المعلم على تلاميذه كلمة بليغة » . فكلمة هنا مجاز مرسل ذكر الجزء وأراد الكل .

ولعلنا نجد في تعريف « البلاغة » — كما استقر أخير علاقة بين اللفظتين ، فالبلاغة كما حددها القزويني : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » . (٣٧) هذا عن بلاغة الكلام أما بلاغة المتكلم عنده « هي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » . (٣٨) .

ونلاحظ أن تعريفه لكلمة بلاغة متضمن الفصاحة ، ومعنى هذا أن الفصاحة شرط في البلاغة . ولا توجد البلاغة إلا بفصاحة الكلام ، ومن ثم نجد أن فصاحة الكلمات شرط ضمنى لأن فصاحة الكلام لا تتحقق إلا بفصاحة الكلمات ، وعلى ذلك تسقط صفة البلاغة عن كلام قد خلا من الفصاحة حتى لو طابق الكلام مقتضى الحال .

كما نجد في تعريفه لبلاغة المتكلم ما يبين العلاقة بينها وبين الفصاحة فقوله : « هي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » ، مرتبط ببلاغة الكلام ، فالكلام البليغ الذى هو كالشرط في بلاغة المتكلم يعتمد على الفصاحة كما أشرنا آنفا .

ويحاول القزويني أن يقرر هذه الحقيقة في صورة مختلفة ، وذلك عندما يحاول وضع عاملين ترجع البلاغة إليهما وذلك عندما يقول :

« .. وقد علم بما ذكرنا أمران : أحدهما أن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ، وليس كل فصيح بليغا . والثانى أن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره » (٣٩) .

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٢٢ .

(٣٨) شروح التلخيص ص ١٤٢ .

(٣٩) شروح التلخيص ص ١٤٤ - ص ١٤٥ .

ونلاحظ أن ما جاء في الأول من كلام الخطيب القزويني مستمد مما تحدث عنه ابن سنان الحفاجي في سر الفصاحة ، وكان منطلقا لتفسير العلاقة بين الفصاحة والبلاغة . ولقد اتجهت هذه التفسيرات اتجاهات مختلفة ومتباينة ونستطيع أن نستخلصها ونجملها فيما يلي :

أولا : اتجهت يرى الفصاحة شرط في البلاغة لا يتحقق إلا بوجودها ، وهي أكثر مجالا من البلاغة ، وهو اتجاه القزويني كما فعل في الإيضاح ، ولذلك نجد القزويني يقدم الفصاحة على البلاغة أثناء تناوله لهما بالشرح .

ثانيا : اتجهت يرى أن اللفظتين مترادفتان ، وهو اتجاه قديم ظهر من استعمال اللفظتين بمدلول واحد كما فعل الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والباقلاني والرماني ، ويرى صاحب مواهب الفتاح في شرح تلخيص الفتاح (ابن يعقوب المغربي) أن إطلاق لفظ الفصاحة على معنى البلاغة واقع في السنة أهل الفن كثيرا^(٤٠) كما ينقل بهاء الدين السبكي عن الجوهرى قوله : « البلاغة الفصاحة »^(٤١) .

ويحاول السبكي أن يفسر ما قاله الجوهرى بما يتفق مع ما في ذهنه من تصور عنها فيقول معلقا على جملة الجوهرى « والظاهر أنه يقصد بذلك أن البلاغة تكون في الكلمة كما تكون في الكلام ، وذلك لا يوجب ترادفا ، بل يوجب أن كل محل صالح للفصاحة صالح للبلاغة وإن اختلف معناهما . وقد صرح جماعة بأن بين البلاغة والفصاحة تغايرا ، وأن كل ما صالح لأحدهما من كلام ومتكلم وكلمة صالح للآخرى »^(٤٢) والسبكي هنا يحاول أن يفسر كلام الجوهرى بأن اللفظتين غير متساويتين في المدلول .

وينتج عن هذا التفسير مخالفة لما ورد عن القزويني والحفاجي وابن الاثير

(٤٠) شروح التلخيص ص ١٣٦ .

(٤١) شروح التلخيص ص ٧٤ .

(٤٢) شروح التلخيص ص ٧٤ - ص ٧٥ .

من أن « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ » ، وتكون النتيجة أن « أن كل فصيح بليغ أيضا ، وحتى ولو لم يقل السبكي بالترادف في اللفظين .

ثالثا : اتجاه يرى العلاقة بينهما هي العموم والخصوص ، وهذا الاتجاه قد قام على ما قاله الخفاجي ونقله عنه تابعوه في التفريق بين البلاغة والفصاحة وهو « كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ » . وعلى هذا الأساس رأى بعض علماء البلاغة مثل ابن يعقوب المغربي صاحب « مواهب الفتاح » في شرح تلخيص المفتاح ، أن البلاغة أخص من الفصاحة ، والفصاحة أعم منها ، وذلك يتمخ من قوله : « نعلم من أخذ الفصاحة في تعريف البلاغة أن كل بليغ سواء كان ذلك البليغ متكلما أو كلاما فصيح لأن البلاغة أخص من الفصاحة ، وكلما وجد الأخص وجد الأعم ولا عكس كليا أي لا يصدق كل فصيح بليغ ، وهذا هو المعنى بالعكس اللغوي ، وذلك لأن الفصاحة أعم ، ولا يلزم من صدق الأعم صدق الأخص (٤٣) » .

وينقل السبكي عن ابن الأثير مثل هذا الكلام فيقول : « وقال ابن الأثير : البلاغة شاملة للألفاظ والمعاني ، فهي أخص من الفصاحة . كالإنسان مع الحيوان ، فلذلك نقول : كل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغ (٤٤) » . كما ينقل حازم القرطاجني قوله : « الفصاحة أخص من البلاغة (٤٥) » .

أما جهاء الدين السبكي فإنه يعترض على تحديد العلاقة بين اللفظين بالعموم والخصوص ويرى رأى ابن الأثير في ذلك فاسدا . ويسلك السبكي في ذلك اتجاها مغايرا للاتجاهات السابقة . وهو الاتجاه الرابع في تصوراتنا .

(٤٣) شروح التلخيص ص ١٤٢ .

(٤٤) شروح التلخيص ص ٧٥ .

(٤٥) شروح التلخيص ص ٧٥ - من الملاحظ أن ما أورده السبكي عن

حازم القرطاجني مبني على كتاب حازم ، ولهذا فإن ما أورده السبكي يكمل ما لم يرد في كتاب منهج البليغ لحازم .

رابعاً : اتجاه يرى العلاقة بينهما هي الكل والجزء وهو رأى السبكي كما
أشرنا فهو يصرح بأنه ليس بين حقيقة الفصاحة والبلاغة عموم وخصوص بل
هي كل وجزء ، فالبلاغة كل ذو أجزاء مترتبة ، والفصاحة جزء غير محمول . .
ونراه يسكل فكرته عن العلاقة بينهما عندما يعلق على ما قاله ابن الأثير فيقول :
« . . هذا الكلام أيضا ظاهر الفساد ، وليست الفصاحة أعم من البلاغة
ولا العكس ، بل الفصاحة جزء البلاغة ، وإنما هو سمي المركب تركيبا غير محلي
أخص ، والمفرد أعم ، وجعل الفصاحة عامة والبلاغة خاصة لاشتغالها على الأمرين
ثم عبر عن ذلك بالعام والخاص ، وإنما هو كل وجزء » (٤٦) .

ونلاحظ أن قول السبكي بأن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة تقوم على الكلية
والجزئية ليس من ابتكاره بل أخذه عن الخفاجي وذلك عندما يقول في سر
الفصاحة :

« . . وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، وإذا كانت
الفصاحة شطرها وأحد جزئيهما ، فكلامى على المقصود — وهو الفصاحة — غير
متميز إلا في الوضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره » (٤٧) .

هذه الجوانب التي تمثل العلاقة بين اللفظتين قد استخلصناها من تناول
البلاغيين لهما بالتعريف والتحديد ، وهذه العلاقات هي في رأينا أهم ما ذكر
عنها في هذا الصدد ، وهناك جوانب ارتباط بينهما آثرنا عدم تناولها بالتحليل
لأنها متضمنة في هذه الجوانب مثل : العلاقة التي توجد بين مقتضى الحال
والفصاحة وهي علاقة تستطيع أن نسميها بالعلاقة التكاملية ، أي أن كليهما
يسكل الآخر ، أو يقرن مع الآخر حتى تحقق البلاغة ، فلا بلاغة بغياب
أحدهما عن الآخر . لكننا لم نفصل هذا الجانب من العلاقة لأننا أشرنا فيما سبق
إلى أن الفصاحة شرط للبلاغة كما وضعنا في « أولا » .

(٤٦) شروح التلخيص ص ٧٥ .

(٤٧) سر الفصاحة ص ٥١ .

وهنا جانب آخر يمكن أن يوضح العلاقة بين اللفظتين وهو الاتجاه الذي يمكن أن يبين علاقة اللفظتين ببعض القضايا كعلاقتهما بقضية اللفظ والمعنى ، أى : هل العلاقة بينهما من صفات اللفظ أو المعنى ؟ لقد كثرت الآراء فى هذا الجانب وإنما قد اكتفينا بما أوردناه فيما سبق عن المفهوم الاصطلاحي والمدلول اللغوي لهما (٤٨) وسنعرض لهذه العلاقة فيما سوف نتناوله إن شاء الله فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم الدلالة أو المعنى .

ونجد أنفسنا الآن أمام قواعد الفصاحة أو شروطها كما فهمها البلاغيون لتبيين كل قاعدة من قواعدهما ، محاولين تلمس جذورها ونشأتها وتطورها بالتأصيل والتقويم .

(٤٨) تناولنا الحديث عن علاقة اللفظ بالمعنى فيما كتبناه عن علاقة علم الدلالة بالفصاحة - وكذلك فى الفصل الذى كتبناه عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .